من الأدب الأمريكي المعاصر

رحلة يوم

للكاتب الأمريكي هاملين جارلاند

ترجمة : مرتضى عبد الغفار

عاد السيد سام ماركهام الى بيته بعد ان نقل آخر حمل من الحنطة الى المعلف فوجد زوجته قد أرقدت اطفالها فى السرير وبدأت تعجن قدرا من الدقيق وهى تتحامل على نفسها تحامل متعب مكدود .

نزع سام حذاءه المبتل من قدميه ، وبعد أن وضع فلقة من الخشب فوق المدفأة ألقى بقدميه عليها باسترخاء استمع الى صرير كرسيه عندما اتكأ فيه الى وراء فلم يعر ذلك اهتماما اذ ألف ذلك كما ألف زوجته الريفية العرجاء .

ومجهوده الموصول، بادر سام زوجته قائلا : ان هذا آخر ما عندى من القمح وربما قصدت البلدة غدا لتركيب حدوة لجيادى . فردت زوجته وهى تحاول فى يأس أن تؤثر فى زوجها بنغمة فيها ثقة وحزم: «قد استعد للذهاب معك» فأجاب وهو يبرطم :

ـ لماذا تريدين الذهاب الى المدينة ؟ فانفجرت فى وجهه قائلة : لماذا يذهب أى انسان الى هناك . انى لم أترك البيت قرابة ستة أشهر على حين أنك تذهب وتذهب .

لم يمض بعد ستة أشهر فقد كنت هناك يوم اشترينا منجل الحشائش .

ـ متى كان ذلك ؟ فى العاشر من يوليه وانت تعلم .

ـ لم يخطر ببالى أنه قد مضى هذا الزمن البعيد ، لااعتراض لى على ذهابك وسأنقل زنة حمل من أكياس القمح .

اترك كيسا يعادل وزنى أنا والطفل.

ـ لا بأس لكن ينبغى تجهيز القمح الليلة اذا أردت أن تصحبينى فى الصباح فلن يتسع وقتك اذ ذاك لمساعدتى فى حمل الزكائب واعداد الاطفال للذهاب الى المدرسة .

ـ دعنا نذهب للعمل الآن .

ـ لامفر من ذلك وان كنت أكره الخروج ثانية .

تثاءب الزوج بالم وبدأ يدخل قدميه المتورمتين فى حذائه الطويل ، كما ارتدت هى معطف الزوج ووضعت على رأسها قلنسوة الطفل ويمما معا الى

مخزن الغلال والليل بارد والسماء صافية .

وقال سام بارتياح :

ـ الليلة دافئة وقد لايسقط فيها الصقيع كما حدث فى الليلة الماضية .

فرز الزوجان السليم من أكياس القمح الفارغة على ضوء المصباح ، ثم تسلق سام الصومعة وفى يده دلو من صفيح وبدأ العمل .

كان سام رجلا قويا فاستمات لينجز عمله بسرعة . فكانت الدلو اللامعة تغوص فى أعماق القمح البارد ، ثم يرفعها بقوة الى فم الكيس حيث تلقى بثقلها على يدى زوجته المجهدتين فترتعد أوصالها ، لكنها على الرغم من ذلك ، أخذت تجر الزكيبة بعيدا عقب ملئها لتحضر غيرها ، وأخيرا خرج سام من الصومعة وقد تفصد وجهه بالعرق ، وانبهرت انفاسه ليقوم بغلق الزكائب ثم قال لزوجته :

ـ يحسن ارجاء نقلها الى العربة حتى الصباح ولن تكون بى حاجة الى انتظارك فساحزمها ساعتئذ وحدى .

وافقت الزوجة وأحست بالارتياح اذ لم تتوقع أن تعود الى المنزل بهذه السرعة ، وشعرت بالسعادة لطلوع القمر فى طريق عودتهما الى البيت .

تسللت شعاعات الفجر الى حجرة نومهما خلال النافذة المفتوحة وأيقظتهما أصوات الطيور أسرابا ، فتقلب الرجل فى فراشه بصعوبة وأخذ يتحسس طريقه الى المدفأة فى المطبخ المظلم البارد واستيقظت زوجته وهى تحس بآلام فى قدمها وتوتر فى أعصابها من ارهاق الليلة الماضية وبدأت تعقص شعرها النحيل لتجعل منه عقدة .

لم يتوقف سام ليغسل وجهه ، بل انطلق ع لى الفور الى مخزن الحبوب . . ونهضت زوجته على عجل وغمست وجهها فى حوض الماء ، ثم وضعت الغلاية على النار ، وشرعت تجهز الفطور وأيقظت أطفالها مع علمها بأن الوقت مبكر ، بينما ترتب فى ذهنها ما تريد شراءه : بكرتى خيط ، وست ياردات من نسيج قطنى ، وعلبة بن ، وجوارب للاطفال . . هذه الاشياء لابد من شرائها من بين مالايحصى عده مما تحتاج اليه .

وسرعان ما اندفع الاطفال ، فى اضطراب ، من ظلام الدور العلوى لارتداء ملابسهم قرب مدفأة المطبخ ، ارتعدت أطرافهم وقد رفعوا أقدامهم العارية عن الارض الباردة وكأنهم أفراخ وسط الجليد المتساقط ، تشيع بينهم هيجة وزمجرة ويغشاهم انكساز .

تحملت الام ذلك لحظة باصدار الاوامر لهم بالتزام الصمت .

ولما نفذ صبرها حملت على تلك الطغمة المتنازعة تلطمهم ذات اليمين وذات الشمال .

تناول الاطفال طعامهم على ضوء مصباح النفط ، وعاد سام عند الفجر الى عمله فى فناء المزرعة ، وما انفرد الاطفال بأمهم حتى أخذوا يعاكسونها لتسمح لهم بالذهاب معها الى المدينة ، غيرانها أخبرتهم بانه لن يذهب معها الا الطفل الرضيع على حين يتولى أبوهم حمل القمح فى العربة .

أعدت الام أطفالهـــا للذهـــاب الى المدرســـة وأتمت عملهـــا فى المطبخ ، فشعرت بالضعف بعد هذا الجهد فدلفت الى حجرة النوم الباردة القريبـــة من حجرة الجلوس وارتديت أحسن ملابسها ولم يكن بالثوب اللائق بعـــد أن ضوى جسدها وبدأ الذبول حول كتفيهـــا وخصرها • رقدت على فراشها لحظـــة لتسرى عن نفسها ما تحسه فى ظهرها من ألم سمج • وفى لحظة كرهت انبعاثها الى المدينة على الاطلاق ، فالـكرى كان يداعب جفنيها ، ولكن شبح يومهـــا المتطاول المملول الذى ينتظرها فى القرية محا كل ماتجده من رهق ، فنهضت تعد طفلها الرضيع لهذه الرحلة •

وبعد شروق الشمس بقليل بدأ سام سيره عبر الطريق الى المدينة متوجها الى بلبلين وامرأته وراءه متكفئة على أكياس القمح وبحضنها يتشبث الطفل ، وعلى ركبتيها غطاء من قطن •

حاول سام أن يكون دمث الاخلاق ، فأخذ يتحدث اليها فى الفينة بعد الفينة وان كانت لاتفهمه الا اذا استدار نحوها تطلع الطفل الى الأعواد التى يتكون منها سياج المزارع وحرك يديه من قفازهما فى كل فرصة تعبيرا عن مرجه • وكان الجو يزداد دفئـــا على مد الطريق ، وهبت ريح من الجنوب واستقر التراب على شال المرأة وقبعتها وانحل شعرها وتناثر حول وجهها دون انتظام ، امتاز الطريق المتجه عبر البوارى المرتفعـــة بالملامسة والجفاف بيد انه لم يخل من مواقع هزتها فزاد هذا من آلام ظهرها ، ولم يكن لديها ماتتكىء عليه وازداد ثقل الطفل حتى اضطرت أن تضعه على الزكائب التى تقع الى جوارها مع انها لم تستطع لحظة أن تخفف من قبضتها عليه •

تبدت البلدة على مدى النظر مجموعة من المنازل موحدة الطراز ومن المخـازن الصغيرة المطلة على الشوارى الجـــافة الى جوار محطة السكة الحديد ، ولم يصادفوا بعد فى رحلتهم أشجارا مظلة ، فغطت أشعة الشمس القـاسية كل شىء دون هوادة على أنهم شـــهدوا بعض الدواب مربوطة فى أماكن شتى ، وقليـــلا من الرجال السمر ، وجوههم فى ســـمرة الجلد ، يجلسون فى اطمئنان تحت المخازن وحواشى قبعاتهم تبرز الى أعلى وتتدلى الى أسفل •

أنزل ماركهام زوجته من العربـــة ، وتركها فى أحد متاجر البقالة واتجـــه الى السوق ليبيع حنطته ، تكلف البقال فى تحيته لزوجة السيد ماركهام دون اكتراث ، وقدم لها مقعدا فتلقته من يده وجلست ربع ساعة دون أن تتحرك وهى متكئة على ظهر المقعد المرتفع ، وأخيرا بدأ القلق والاضطراب يظهر على الطفل فقضت الام زهاء نصف ساعة ، وهى تساعده على أن يسلى نفسه •

وأخيرا نهضت وخرجت الى الممشى وهى تحمل طفلهـــا ويممت الى مخزن الاطعمة الجافة وجلست على أحد المقاعد الصغيرة المتحركة • فالفت امرأة تشترى بعض الاقمشة الصوفية لتصنع منهـــا ثوبا ثمن اليارده منها سبع وعشر سنتا وعدها البائع بتخفيض سنتين منها اذا اشترت عشر يارادات ، وتمنت الام لو أن معها مايكفى من المال لتشترى لطفلتها مارى حلة من هذا الصوف ، وقدمت على المتجر صبية صغيرة مرحة ، هى ابنة البقال ،

ثم تحدثت الى البائع واشترت قفازين وحزنت الام للسعادة التى تحظى بها أمثال هذه البنت ، ولما عاد زوجها سام سألته بعض النقود :

ـ ماذا تريدين أن تفعلى بها ؟

ـ أن انفقها ٠

ولما رأى أنه لايستطيع اسكاتها اعطاها دولارا واحدا فطلبت منه ثانيا ٠

ـ حسنا ٠ ينبغى أن أذهب الى المصرف فليس معى عملة صغيرة ٠

ـ ان الاطفال فى أمس حاجة الى بعض الملابس الداخلية الجديدة فأعطاها صكا بدولارين فاشترت نسيجا قطنيا وجوارب للاطفال وخيطا ، ثم جلست مستندة الى منضدة صراف المتجر ٠

انتصف النهار فأحست بالجوع وذهبت الى العربة وأحضرت طعامها الذى أعدته وقصدت متجرا لتأكل حيث يسعها أن تجد شربة ماء ! أعطى البقال قطعة من الحلوى الرخيصة وأعطى امها تفاحة ونصحها أن تتناول طعامها ففعلت ثم انصرفت اذ شعرت بالخجل من جلوسها هناك مدة أطول ٠ ودلفت الى مخزن لبيع الأطعمة الجافة مما يجلب من الريف ٠ سألها كاتب المتجر وقد اتجه نحوها ان كان لديها ماتبيعه فردت بالنفى وانصرف الرجل فى غير مبالاة ٠

أخذت تذرع الشارع جيئة وذهابا على غير هدى ودون أن تجد مكانا تستريح فيه ٠ لم تعرف ماذا تصنع فهى لاتعرف أحدا هنا الا البقال ٠ وامتلأت بالمرارة عند رؤيتها سيدتين تمران بها وقد تزيت كل منهما بثوب من آخر طراز ، ومرت بها سيدة أخرى تدفع أمامها عربة أطفال يجلس فيها ولد ، فى مثل عمر ابنها ، وهو يتقافز ، ضاحكا صائحا ، الى أعلى والى أسفل على الحشية المطاطة للعربة ، وقد تألق وجهه المستدير النظيف تحت قلنسوته الأنيقة التى زركشت حواشيها ، فصعدت الأم النظر فى طفلها الهزيل بملابسه المغبرة ووجهه القذر واندفعت فى سيرها بقسوة الى الامام ٠

أقبلت على حانوت لبيع الأشربة الفوارة فأحست بالظمأ يشتد بها ، فارتدت الى الشارع من جديد ، سيطر عليها القلق وهى لا تعرف سبب ماتعانيه من ضيق ٠٠٠ أجل انها تفتقد زوجها اذا فلتنتظر أوبته ٠ وما هى الا لحظة حتى ترامت الى أذنها ضحكات سام زوجها فلوت رأسها فرأته فى ثلة من أصدقائه قرب حانوت الحداد ٠ انه يقضى وقتا طيبا وقد نسى كل شىء عنها ٠٠٠

دب الألم فى ظهرها وزاد الى حد يفوق احتمالها فقررت أن تعود ثانية الى حانوت البقال لتجد شيئا من الراحة فى الجلوس على المقعد الذى يقدمه لها ٠ ازداد غضب الطفل وتبرمه فاشترت قطعا من الحلوى بخمسة سنتات لأطفالها فى البيت ، وأعطت الطفل نتفه صغيرة منها حتى يسكت ٠ وتمنت حضور سام بعد أن تأخر الوقت فقد جاوزت الساعة الواحدة بتليل ٠ مرت اللحظات وئيدة متثاقلة الخطى وشعرت انه لابد أن تؤدى شيئا وهى فى البلدة ٠ تصفحت فى ذهنها ما تريد أن تشتريه ٠٠٠ ان هذا فظيع ٠٠٠ ان ما تحتاجه يزيد ثمنه على عشرين أو ثلاثين دولارا على الاقل ، وهى وزوجها يحتاجان الى ملابس داخلية للشتاء البارد غير أنه لا مهرب لهما من

اتخاذ الملابس القديمة مع تهلهل نسيجها ونصول لونها ، فكرت بمرارة فى أنها لا تحتاج الى ثوب لأنها لا تذهب قط الى مكان آخر غير بيتها والسوق ... لكنها نهضت ثانية الى الشارع وأخذت تخطو من مكان لآخر متطلعة يمنة ويسرة الى كل شيء عسى أن تجد بعض المتعة ...

الى جانب الطريق وقف رجل ، من بلدة بون جريك ، يسند حملا من التفاح حتى يعود البقال . ولاحظ الرجل الغريب السيدة ماركهام وطفلها فاعطى الطفل تفاحة . وتهلل وجه الرجل بالبشر والارتياح لما فعل اذ رأى أمامه زوجة فلاح عادى فى ثوب أغبر وشعر اشعث ووجه متعب . لم يعرف بالضبط لماذا استشعر الرأفة بها ، غير أنه حاول اضفاء السرور عليها .

اعتاد البقال رؤية هؤلاء القرويات التاعسات اللائى تعوزهن النظافة والراحة وألف جلوسهن ساعات فى مقعده الخشبى وهن يرعبن أطفالهن المكدودين البائسين وألف أيضا تجوالهن فى الشارع ، على غير هدى ودون ما هدف ، فى خذلان وذلة وحزن واستسلام ... وكل هذا لم يحرك فى البقال ساكنا ولم يحمل اليه معنى .

وعلى مسيرة دقيقتين من مخزن البقالة يقع منزل صغير جلس فى احدى حجراته رجلان وسيدة ، على وشك الانتهاء من غداء أنيق ، وقد ارتدت السيدة ملابس بيضاء بسيطة أضفت على المكان جوا من الوداعة والراحة الكاملة ولم يكن هذا المنزل الذى يقطنه السيد هول أفخم منازل البلدة لكن زوجته جعلته أكثرها اناقة وجاذبية . والسيد هول من أشهر المحامين فى هذا الاقليم ، كما أنه رجل ذو ثقافة عالية وآراء متحررة ، وقد استضاف فى هذا اليوم صديقا له ألقى محاضرة فى الليلة السابقة فى كنيسة البلدة

لم تكن المناقشة بين الحاضرين جدية ، فقد كان الحديث خفيفا بعض الشيء . وللسيد هول قدره على تقليد بعض الرجال بأداء بعض مواقفهم وما يبدون من حركة أو اشارة . وكان يصف لصديقه الذى حضر من شرق الولايات المتحدة بعض المحامين القدماء الذين عرفهم أثناء مزاولته المهنة فى الغرب بطريقة مسلية ، وضحك الضيف من كل قلبه لهذه الطرائف .

وبعد قليل تحقق السيد هول أن السيد أوتيس لا يصغى اليه ورأى أنه يتطلع من النافذة الى شخص ما وقرأ على وجهه مسحة من الكآبة والضيق .

ـ ماذا ترى يا سيد أوتيس ؟

ـ أرى امرأة متعبة مكدودة .

واذ ذاك نهضت السيدة هول وتوجهت الى النافذة فرأت السيدة ماركهام وهى تسير الى جوار المنزل ، وطفلها بين ذراعيها ، الحزن مرتسم على وجهها وشفتيها ، والدموع تترقرق فى عينيها وفى ظهرها ضعف وفى مشيتها تعثر . وبعد صمت استأنف السيد أوتيس يقول: رأيت هذه المقلوقة الفقيرة البائسة مرتين هذا الصباح ولن أنساها . وسألت السيدة هول بكل رقة : من تعنى ؟ .

ـ ان اسمها ماركهام هى زوجة سام ماركهام تقدمت السيدة الصغيرة الجميع الى حجرة الجلوس واتخذ الرجال مقاعدهم ، واشعلوا لفائف التبغ وفكر السيد هول

فى تحويل مجرى الحديث حين استأنف السيد اوتيس الكلام فجأة قائلا :

ـ قدمت هذه المرأة إلى البلدة للترويح عن نفسها ، وهى تجوس هذا الشارع كقط جائع أضناه التعب ، فهل يوجد فى هذه البلدة سيدة لديهـــا من الشفقة والشجاعة ما يدفعها للخروج لمســاعدة هذه المرأة،ان الأنديةومجامع السياسيين وحوانيت البقالة زودت زوجها بالتسلية حتى انه نسى زوجته وتركها دون كلمة.

وهنا سقطت من يد السيدة الخيوط التى كانت تنسجها وارتسم الألم عـلى وجهها الجميل ، وكأن كلمات الرجل قد جرحت كبرياءها ومست شغاف قلبهـا فأخذت قبعتهـــا واسرعت الى الطريق فنظر الرجلان بعضهما الى بعض ثم قال الزوج : يبدوأن الهواء يحتبس والرطوبة تزداد فى هذا المكان ، واقترح أن نخرج للنزهة مترجلين .

شعرت دليا ، السيدة ماركهام ، بيد تربت زراعها وهى جالسة فى ركن مخزن البقال .

ـ يبدو عليك الاعياء ياسيدة ماركهام فهل تسمحين بالراحة فى المنزل بعض الوقت ، أنا السيدة هول

استدارت السيدة ماركهام والدهشة على وجهها ، والجواب محتبس على لسانها أن شيئا مافى وجه السيدة هول الصغير الحلو يمنعها من الكلام وأخيرا قالت وقد انبسطت تقطيبة جبينها :

ـ اشكر عطفك، ان هذا وقت الرجوع الى البيت ، انى أبحث عن زوجى .

ـ تفضـلى بالدخول بعض الوقت ، فالطفل غاضب نهكه التعب .

وهنا أذعنت السيدة ماركهام لهـذا الصوت الصديق ودلفت السيدتان من البوابة على حين خرج الرجلان من الجانب الآخر

ـ دعينى أخفف عنك ياسيدةماركهام

ـ ان الطفل تعلوه غبره .

ـ أه .. ما أكبره ، ليس لدى طفل.

ومرت نظرة بين السيدتين كشرارة كهربية أصبحت بعدها داليا ضيفتهـا المطيعة دخلت السيدتان فى حجرة الجلوس وهى حجرة أنيقة وجميلة فى نظر زوجة فلاح ، وعندما غاصت فى الكرسى الوثير بدت وسنانة من فرط السرور وترطب حلقها الجاف بشىء بارد ، وانبعثت فى باطنها موجة دافقـــة من الرضـــاء ، استسلمت لتمشيط شعرها واســلمت الطفل الى يد فتاة سويدية تعمـل فى المنزل فغسلت وجهـه ويديه وغنت له لينام ، على حين كانت أمه ترتشف الشاى وقد زال الالم من ظهرها وتوقف رأسها الساخن المتورم عن الدق .

رأت السـيدة ماركهام كـل شىء ، المعزف واللوحات والستائر وورق الحائط وخمالة الشاى ، وكان كل هذه الادوات قد اغتبطت بحضورها مثلها فى ذلك مثل الطعام والشاى العاطر ، وهى لم تر أبدا ادارة للمنزل كهذه الادارة ، فأمها طول حياتها ، أبلت بخدمتها فى المنزل أرضية المطبخ فى بيوت أكثر اتساعا وفخامـة غير أن سحر مضيفتها ينحصر فى تنظيم زهرياتها ومقاعدها ولوحاتها مما يشهد لها بالذوق الجميل .

لم تسألها السيدة هول عن شئونها بل تحدثت اليها عن الطفل الصغير القوى

وعما وقعت عليه أنظارها فى هذه الزيارة واذا بدا اهتمامها بزهرية مثلا شرعت تحدثها عنها حديثا يناسبها ، كما رأت داليا كل اللوحات والكتب وكان السيدة هول فرأت أفكارها فابتعدت فى الحديث معها عن مزرعتها وشئونها الخاصة جهد امكانها ، وأخيرا رفعت غطاء البيان ، وغنت لها لا الالحان الدينية البطيئة ، ولكن أغانى الحب العامرة بالعاطفة ·· أدركت سيدة المنزل أن زوجة الفلاح كانت تتفحص يديها وقرطيها وومضات أصابعها على مفاتيح البيان ، ورأت أكثر مما سمعت وخلال هذا كله ظهر انها هى أيضا قضت وقتا طيبا ·

انتبه الجميع فجأة على ضوضاء عربة فى الخارج وكان الزوج سام ينتظر على البوابة ، فنهضت السيدة ماركهام بسرعة وهى تلتقط انفاسها من الدهشة وتنظر خارج النافذة

ـ أوه ·· كادت الشمس أن تغيب ·

ـ أجل ·· أن هذا لايضير أحدا · · لاتسرعى ·· خذى الطفلة ياكارى الى العربة ، أما انا فأساعدها فى بعض شئونها ·

ـ لقد قضيت وقتا طيبا ·

وأمنت السيدة هول على كلامها ، ثم حملت الطفل لحظة عند صعود السيدة ماركهام الى العربة وصاحت عندما ضمته اليها ·

ـ أوه · أيها الشاب الكبير السمين مستر ماركهام يجب أن تحضر زوجتك هنا كثيرا ·

ـ شكرا لك · سوف أحضرها ·

ـ وداعا ياعزيزتى ·

أما الشفقة والحنان البادیان فى صوت المضيفة فقد جعل دموع الفرح تترقرق فى عينى داليا ·· دموعا ليست بالساخنة ولا بالمرة بل دموعا طمأنت نظرتها وصفت أفكارها ·

هدأت الريح وهبطت أشعة الشمس الحمراء بين الضباب على عالم الحنطة وبقاياها المتروكة فى الارض بعد الحصاد وكان الصرصور يزقزق والماشية تتحرك صوب المزارع ، لقد جعلت العاطفة الانسانية من هذا اليوم يوما جميلا ·